مجلة أبحاث
ISSN: 0834-2170
EISSN2661-734X
المجلد 6 / العـــــدد: 1 (2021)، ص 153– 169

فينومينولوجيا الإدراك عند موريس مرلو–بونتي

Phenomenology of Perception in Maurice Merleau-Ponty

طيقاني عبد المالك*، كلية العلوم الإنسانية جامعة تلمسان / الجزائرtiganitigani01@gmail.com

تاريخ الاستلام: 03 /2021/05 تاريخ القبول: 25 /2021/05 تاريخ النشر: 2021/06/05

ملخص:

ملخص: هذا العمل يحلّل إحدى المفاهيم المميزة. ويتعلق الأمر بتصور الفيلسوف الفرنسي موريس مرلوبونتي، الذي سعى إلى تأسيس الفينومينولوجيا انطلاقا من مفاهيم خاصة؛ ترتبط بفهمه لطبيعة الإنسان وبقيمة الجسد عنده في مقابل الروح. فعلى الرغم مما شاع عن الفينومينولوجيا على أنها فلسفة وعي بامتياز، إلاّ أن اصرار مرلو–بونتي على القول بأسبقية الجسد وتجربته داخل العالم هي ما يؤسس لانفتاح العالم، أي للإدراك الفينومينولوجي. إذ تكمن أهميته في القراءة الجديدة التي قدمها للفينومينولوجيا، فعلى الرغم من تأثره الواضح بكل من (هوسرل) و(هيدغر) إلا أنه لم يكن يفكر مثلهما وإنما فكر معهما، حيث وجد أن هناك طرحين مختلفين للفينومينولوجيا أحدهما يجعل منها بحثا في المعرفة وهو الذي يمثله هوسرل وثانيهما يجعل منها مبحثا في الوجود وهو الذي يمثله هيدغر... إن فينومينولوجية مرلو–بونتي تقوم على حرقة السؤال الفلسفي دون الاستسلام للدوغمائية، وعلى هذا الأساس يمكن صياغة بعض التساؤلات العامة التي من شأنها أن ترسم مسار حركة البحث وتؤطر مضامينه: ماهي التجربة الفينومينولوجية؟ وكيف يكون للإدراك إمكانية التأسيس لفلسفة فينومينولوجية؟ وما هي الحمولة المفاهيمية والدلالة الوظيفية، التي يحملها هذا المفهوم داخل فلسفة مرلو–بونتي؟

كلمات مفتاحية: تحليل، فينومينولوجيا، مرلو–بونتي، الجسد، إدراك.

Abstract:

Abstract: This work analyzes one of the distinct concepts. It is about the philosopher's perception
The Frenchman Maurice Merleau-Ponty, who sought to establish Phenomenology on the basis of concepts Especially; It is related to his understanding of the nature of man and the value of the body to him as opposed to the spirit. Despite what Phenomenology has been popularized as a philosophy of consciousness with distinction, but Merleau-Ponty's insistence on the saying of the primacy of the body and its experience within the world is what establishes the openness of the world, that is, perception. Phenomenology. as his importance lies in the new reading he presented to the Phenomenology. Although he was clearly influenced by both (Husserl) and (Heidegger), he did not think like them, but rather thought with them. That there are two different propositions to the phenomenology, one of which makes it a study of knowledge, which is represented by Husserl, and the second of which makes it a study of existence, which he represents ... It can chart the course of the research movement and frame its contents: What is the phenomenological experiment? And how does perception have the potential to establish a phenomenological philosophy? And what is the conceptual load and functional connotation that this concept carries within the Merleau-Ponty philosophy?

Keywords: analysis, phenomenology, the body, Merleau-Ponty, perception.

* **طيقاني عبد المالك***، طالب دكتوراه مخبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها كلية العلوم الإنسانية جامعة تلمسان/ الجزائر

مقدمة:

يعتبر العصر الحديث من أهم المراحل التاريخية التي أولج فيها الفكر الإنساني من إبداع على المستوى الفلسفي، العلمي والفني هذا ما أدى إلى التغيير الجذري في الأنساق الفلسفية، وبدأت تظهر أنساق فلسفية تدعو إلى أفكار انفتاحية مع العصر المعاصر، فأرادت أن تبحث فيما هو عيني وملموس دون الخوض في غمار الميتافيزيقا العميقة، إذ أن التطور العلمي فتح أبواب الاختصاص على مصراعيه، جسد الوضعية على أسس متينة، يمجد الاتجاه الواقعي، الذي يهدف إلى اليقين والمعايشة الحيثية مع مختلف التجارب الإنسانية، فكان شعارها الموضوعية، حيث أن كل خطاب لا يبنى على أسس صدئة، ولا على أعمدة متآكلة بل يبنى على ما هو جديد ومثير، يحملنا إلى شغف البحث، ومع هذه الحيثيات كانت ولادة الفينومينولوجيا بوصفها أكبر التيارات الفلسفية المعاصرة، عملت على تجاوز المثالية والمادية، فانطلقت من قواعد علمية كالرياضيات واهتمت بالواقع المعيش، فتمحورت بحوثها حول الوجود الإنساني، فكان البحث عن هذا الوجود أكثر اهتمامات الفلاسفة الوجوديين.

تهدف الفينومينولوجيا إلى بناء معرفة أصيلة تعتمد على الصرامة المنهجية، والدقة في تحليل المواضيع، حيث تعتبر المنهج والموقف في آن معا، وتحاول الفينومينولوجيا أن تدرس مختلف المواضيع والقضايا الفلسفية بما هي ظواهر إن مجال الفينومينولوجيا واسع النطاق، لكن الثابت فيها هو أنها فلسفة تبحث عن الجذور، تبحث عن المبدأ الأصيل الذي يؤدي إلى صياغة العلم اليقيني الذي أكد عليه مؤسسها الأول هوسرل، ولقد عرفت بعده أي الفينومينولوجيا تحولات وتطورات سواء في شكلها أو مضمونها وهو فعلا ما حصل أولا على أرضها المانيا مع الفيلسوف الناشئ آنذاك "مارتن هيدغر" تلميذ هوسرل، الذي انعطف بها نحو الوجهة الأنطولوجية، ثم خارج حدودها بفرنسا خاصة مع "موريس مرلو–بونتي" الذي أعطاها بعدا آخر بما أقحمه عليها من مفاهيم وآليات منهجية جديدة، هذا الأخير هو محور دراستنا، وقد أخترنا في عملنا موضوعا محدد داخل الحقل الفينومينولوجي وهو الموسوم بـ "فينومينولوجيا الإدراك عند موريس مرلو–بونتي" إن دراستنا القائمة على المنهج التحليلي قد حاولت أن تتبع المبادئ والعناصر الأساسية التي تحكم مسار البحث الفينومينولوجي داخل نطاق وجودي للظواهر والخبرات المختلفة، للفيلسوف الفرنسي موريس مرلو–بونتي رغم صعوبته وغموضه وعمقه الفكري، حيث دفعنا دائما إلى البحث عن المزيد للغوص إلى أعماق هذا الفكر الوجودي والاستمتاع بنشوة البحث.

إن "موريس مرلو–بونتي" (1908–1961) هو أهم ممثلي الفينومينولوجيا في فرنسا، إذ تكمن أهميته في القراءة الجديدة التي قدمها للفينومينولوجيا، فعلى الرغم من تأثره الواضح بكل من (هوسرل) و(هيدغر) إلا أنه لم يكن يفكر مثلهما وإنما فكر معهما، حيث وجد أن هناك طرحين مختلفين للفينومينولوجيا أحدهما يجعل منها بحثا في المعرفة وهو الذي يمثله هوسرل وثانيهما يجعل منها مبحثا في الوجود وهو الذي يمثله هيدغر... إن فينومينولوجية مرلو بونتي تقوم على حرقة السؤال الفلسفي دون الاستسلام للدوغمائية، وعلى هذا الأساس يمكن صياغة بعض التساؤلات العامة التي من شأنها أن ترسم مسار حركة البحث وتؤطر مضامينه: ماهي التجربة الفينومينولوجية؟ وكيف يكون للإدراك

إمـــكـــانية التـــأسيس لفـــلسفـــة فينومينولوجية؟ ومـــا هـــي الحمولـــة المفاهيميـــة والدلالـــة الوظيفيـــة، التي يحملهـــا هـــذا المفهوم داخل فلسفـــة مرلـــو–بونتي؟

1ـــ مفهوم فينومينولوجيا الإدراك عند مرلو–بونتي:

كـــلمـــة فـــينومينـــولـــوجـــيا هـــي كما يقول لالاند: "كلمة معربة من اللغة الفرنسية (**Phénoménologie**) مصطلح مركـــب يـــعـــود فـــي اشـــتقـــاقـــه للـــغـــة الأصـــل اليـــونـــانـــيـــة وهـــو بمعـــنى دراســـة الظاهرة، أو علم الظاهرة." (لالاند.أ، 2001، صفحة 973)

ويعتبر أول مـــن استعمـــل حـــسب الـــدارســـون والمـــؤرخـــون الفلسفة الفينومينولوجيـــة هـــذه الكـــلمـــة هـــو الســـويسري "يـــوهـــان هـــانـــريـــش لامـــبرت" (1728-1777) فـــي كـــتـــابـــه "الأورغانـــون الجديد" سنة 1764، وقد وظفها كعنوان للباب الرابع للدلالة على نـــظرية المظهر بالمعنـــى الـــذي يجعـــل مـــن الفينومينولوجيا معيارا يميز به بين الـــصواب والخـــطاء، وذلـــك للـــحـــد مـــن تـــأثير الحـــواس عـــلى نقاوة الأحكام العقلية.

إن وجهات النظر التي عبر عنها الفلاسفة حول الفينومينولـــوجيـــا فـــيمـــا سبـــق تبقى في نظر هوسرل قاصرة عـــن بـــلـــوغ الـــفـــيـــنومـــيـــنـــولـــوجـــيـــا الحـــقـــة والـــفـــلســـفـــة الجـــديـــدة التي جاء بها، فمع بداية مـــشـــروع هـــوســـرل(1859-1938) حـــرص عـــلـــى ان يـــجـــعـــل مـــن هـــذه الفـــلســـفـــة علما دقيقا صارما، فمعه أصـــبحت الـــفـــينـــومـــيـــنولـــوجـــيا كما يقول: " لـــفظ يـــدل على علـــم وعلـــى نظـــام من الميادين العلمية وعلى منهج وموقف للـــفـــكـــر" (هوسرل.إ، س2007، صفحة 56) هـــذا يـــبيـــن حـــرص هوسرل على إعطـــاء لهـــذا المـــفهـــوم حدود خاصة تميـــزه عـــن باقـــي المـــواضيـــع

ســـواء مـــن نـــاحـــية الفكر الفـــلســـفـــي أو المنهـــج الجديد، وحـــتى لا يـــختـــلـــط مـــوضـــوع الـــفينـــومـــينولوجـــيـــا مـــع أي مـــوضوع علم أخر، ولا منهجها مـــع منهـــج بحـــث العلـــم الطـــبيعـــي، والفـــلســـفـــة الفينـــومينـــولـــوجيـــة الهوسرلية كما يراها مؤسسها هوسرل: " تقع ضمـــن بعـــد مســـتحدث تمـــام الاستحـــداث، وهـــي محـــتاجة الى نقاط ابتداء مستحـــدثـــة كـــليـــا، وإلى منهج مستحدث كليا يميزها مـــن حيـــث المبـــدأ عـــن كـــل عـــلم طبيعـــي." (هوسرل.إ، س2007، صفحة 57) وقـــد عـــمـــل طـــول حياتـــه لـــتحـــقيـــق هـــذا المسعـــى عبر عديد المؤلفات المطبوعة والمخـــطـــوطـــة، منهـــا المعروفـــة والتـــي لا تـــزال قـــيد الـــدراســـة والـــبحـــث والتحقيق.

فالفينومينولوجيا لـــم تـــتشـــكـــل دفعة واحدة، و لم تستقر على هيئـــة نظـــريـــة واحـــدة، ولـــــم تـــكـــتـــمـــل أيـــضـــا مـــع هـــــوســـرل، فهـــي فـــلسفـــة مـــفتـــوحـــة الآفـــق لا تـــزال تـــحتـــاج الـــى مـــن يـــغـــوص فـــي عـــمقهـــا المعـــرفـــي ويستخرج كنوزها والاستفادة منهـــا فـــي مختـــلـــف المـــجـــالات الفـــكـــريـــة والفـــلســـفيـــة،

فهي فلسفة منقطعة النظير لم يشهد لها سابقة في تاريخ المعرفة الانسانية، فهي لا تزال تبهر الفلاسفة والمفكرين والدارسين لما تحمله من فكر فلسفي شامل، وهنا تكمن أصالة الفينومينولوجيا التي جاء بها الفيلسوف هوسرل، إلا أنه لا يمكن تجاوز التقاطع الحاصل بين الفينومينولوجيا ومجموع العلوم الأخرى. فالفينومينولوجيا هي علم الظاهرة، وهذا المفهوم له دلالة مشابهة لدى باقي العلوم، كعلوم الواقع (العلوم الطبيعية) وعلوم الإنسان (علم النفس). وليس هناك إختلاف في المفهوم لدى الفينومينولوجيا والعلوم الأخرى إلا بفارق الدرجة، لأن هوسرل وظّفه في منهجه الجديد، وهو نفس المفهوم الذي كان قد انتشر سابقا واستعمله بعض العلماء في علوم الطبيعة (الفيزياء) وعلوم الانسان (علم النفس). إن موضوع الدراسة التي تهتم بها النظرية الفينومينولوجية تعتمد على ما يسمى أو ما يعرف بالماهية وليس الواقعة.

تتجاوز فينومينولوجيا هوسرل التقليد العلمي الطبيعي الذي كان سائدا في الفلسفات السابقة عليها، والذي كان سببا في أزمة العلوم الغربية وكذلك التقليد الفلسفي الديكارتي الذي هيمن عليها طيلة قرون ماضية لم تتخلص من التبعية لهذا التقليد السائد في الفكر خاصة، كونها تبدأ من حيث انتهى الكوجيتو الديكارتي وتوظيفه كقاعدة أساسية لها.

إن مرلو–بونتي لا يتنكر لأنواع الفينومينولوجيا السابقة وإنما تبين له أن النظرية الفينومينولوجيا ليست صياغة جاهزة بل هي إمكانية مفتوحة، وككل مشروع فلسفي جريء، فقد تحتم على مرلو–بونتي، أن يشقّ طريق بين الفلسفات القائمة في زمانه. وكان عليه أن يجد وسيلة للابتعاد عن كلا التيارين التقليدي للفكر المثالي والواقعي. وكان بحاجة إلى منهجية لتحقيق أهدافه الوجودية، أي أنه كان بحاجة إلى جهاز مفاهيمي، ليس من أجل الالتفاف على الفلسفات القائمة، وإنما للدخول معها في حوار من أجل إفحامها. وبالمختصر تتحدد التجربة الأصلية التي يتحدث عنها مرلو–بونتي في عملية الإدراك، وهذا يعني الاعتراف بأن الإدراك ليس ما يمكن أن نصفه بالحقيقي، وإنما هو السبيل الذي نسلكه للبحث عن الحقيقة. من هنا يكون الإدراك نقطة البدء لكل معرفة، فهو السبيل للولوج إلى الحقيقة. فالبحث عن ماهية الإدراك بنظر مرلو–بونتي هو بحث سابق عن كل موضعة قبل كل تفكّر يحمل على الإدراك. فالإدراك يمكننا من وصف الواقعي كما هو في ذاته في استقلاله عن الملاحظين.

ولكن، ما هو الإدراك بالنسبة لمرلو–بونتي؟ هل هو ظاهرة نفسية أو داخلية أم هو شيء آخر؟ أو مجرد وظيفة لبعض المتغيرات النفسية كما هو الحال عند ديكارت. أم هو شيء أخر؟ ماهي أهمية الإدراك في فينومينولوجيا مرلو–بونتي؟

فالمؤكد إن كل محاولة لفهم هذا المفهوم المركزي في فلسفة مرلو– بونتي، يحتم علينا البقاء على أرض الفينومينولوجيا، والبحث عن المنهج أو الآلية الملائمة لبلوغ ماهية الإدراك وتحديد ملامحه.

ليس من السهل على أي "فيلسوف فرنسي" ترعرع في ظل الفلسفة الديكارتية أن يتخطى حدود الكوجيتو إلاّ بصعوبة فائقة، وربما كانت جرأة هوسرل في تجاوز هذا التقليد فاتحة للفرنسيين أيضا على تكرار نفس المحاولة وتفكير ليس مع ديكارت وإنما ضده. فالطريق الذي اختاره مرلو– بونتي عبر تبنّيه للفلسفة الفينومينولوجية، هو بالنتيجة مواصلة تجاوز الكوجيتو، وتجذير مضاعف وفي الاتجاه المخالف في الآن نفسه لذلك الذي توصل إليه هوسرل في نقده لمسلمة: "أنا أفكر إذن أنا موجود". المسندة

للعناية الإلهية حيث يقول بتعويضها ببداهة: "التوجه نحو الأشياء ذاتها" (HUSSERL.E, 1996 p. 07) والمبنية على البيذاتية.

إن هوسرل قد عاب على ديكارت عدم التزامه إلى النهاية بروح البحث الفلسفي، الذي يعد بالدرجة الأولى عملا عقليا صرفا لا يجوز للفيلسوف أن يحيد عنه مهما كلّفه الأمر، كما اعتبر أن ديكارت لم يصل نقطة البدء الحقيقية التي تجعل من حلم الفلسفة الأولى يتحقق على يده. وقد جَبر العيب الأول بمفهوم البيذاتية، التي تحقق الموضوعية العلمية، واستبدل الثانية بالحدس المعطى. عبر قصدية الشعور الذي لا يجعل من الوعي كيانا مستقلا عن أفكاره وبالتالي لا يسبقها، وإنما يتزامن معها.

أما بالنسبة لمرلو–بونتي فإن مخالفته لديكارت تجد سندها في التأمل الثاني. من "التأملات الميتافيزيقية" حيث فصل ديكارت في أحقية المعرفة للعقل دون الجسد، بل وشكك في وجود كل مادة، وقد بلغ به الشك إلى اعتباره كما يقول: "الجسد، والصورة، والامتداد والحركة والمكان ليسوا سوى أوهام للعقل." (Descartes.R, 1647, p. 28) وهذه ليست إلاّ مرادفات للجسد توجد وتنمحي بسلطان العقل وحده. لكن مرلو–بونتي يعطي للجسد الأحقية التي سلبت منه.

من هنا كان تجاوز مرلو–بونتي لكل من الطرح الديكارتي والهوسرلي، وهناك نقاط جمة يختلف بها مرلوــ بونتي في طرحه وتبيّنه للفينومينولوجيا التي جاء بها والتي تتسم بمفهوم الإدراك، وهذا الأخير هو أساس الفلسفة الفينومينولوجية البونتية، كما أن مرلوــ بونتي يؤكد على الفهم الظواهري، أي الفهم الكلي باعتباره المنهج الوحيد للوجود المتجلي في عالم الأشياء يقول:" إن العالم الظاهري ليس وجود خالصا، لكن المعنى الذي يظهر في تقاطع تجاربي وتجارب الأخر. " (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 01)

إنها فلسفة تعيد صياغة الماهيات في الوجود، وهي ليست قائمة على الاعتقاد بل بإمكان فهم الإنسان والعالم بصورة مغايرة لتلك التي تقوم على الانطلاق من وقائعها فالتأسيس الفينومينولوجي المرلوــ بونتي مبني على دراسة علاقة الذات كوعي بالعالم، ليس كونها فقط ذات متعالية، بقدر ماهي ذات في عالم واقعي. من هذه النقطة بالذات تبدأ فلسفة مرلوــ بونتي التي تقوم ايضا على أساس بنية السلوك الإنساني. فماهي أهمية السلوك عند مرلوــ بونتي؟ وما علاقته بالإدراك؟

2–السلوك والإدراك عند مرلو–بونتي:

إذا كان للإدراك أهمية كبيرة بالنسبة للإنسان في العالم، فإن للسلوك أيضا أهمية في فكر مرلوــ بونتي، فقد استحوذ كتابه بنية السلوك مكانة في الإنتاج الفلسفي إلى جانب "فينومينولوجيا الإدراك." (MERLEAU-PONTY, 1996, p. 18)

يتجسد من خلال خيط يربط بين السلوك والإدراك فإذا كان فكرة الإدراك مأخوذة عن أهم مدارس علم النفس كالمدرسة الجيشطالتية، فان المدرسة السلوكية لها تأثير لا جدال فيه من خلال صياغة السلوك الإنساني عند هذا الفيلسوف، هذا ما نجده في المحاضرات التي خُصص جزءا منها لدراسة اضطراب في الوظائف الفسيولوجية للإنسان يؤدي بطبيعة الحال إلى الاضطراب في العملية الإدراكية، هكذا أسس مرلوــ بونتي علاقة وثيقة بين بنية السلوك وبنية الإدراك الحسي، فكان الجسد واللغة هي علاقة تواصل بينهما، فالفينومينولوجيا عنده تقوم على ضرورة العودة إلى الخبرة الإدراكية وذلك بالارتباط بين الإدراك وما هو معيش فهي العلاقة

القائمة بين الوعي والعالم، وتكون علاقة تطرح كوجيتو الجسد كونه هو الذي يدخل في بنية السلوك من خلال الخبرة المعاشة، من أجل إيقاظ الإدراك والتجربة الحية انطلاقا من تحليل الجسد باعتباره مركزا لدراسة الإدراك.... فإن الجسد يؤطر كل التجارب إذ يعتبر شرطا أساسيا لوجودها.

يرى مرلو–بونتي أن " الموضوع الفيزيقي لا يمكن أن يختفي عن أنظارنا، فنحن نراه وهو موجود فعلا أمامنا ويقع في مجال إدراكاتنا ...حيث بنفس نمط ظاهرية جسدي يمكن أن نميز بين الدلالات المنطقية الخالصة وبين الأشياء الخارجية المختلفة هي ذاتها التي تقدم في الإدراك الحسي المعيش." (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 26)

كيف يتصور مرلو–بونتي عملية الإدراك؟

3. عملية الإدراك عند مرلو–بونتي:

إذا استطعنا أن نميز المشكل المركزي في فلسفة " مرلوبونتي " والذي ننطلق منه ونعود دوما إليه، فإنه يكون بدون تردد "مشكل الإدراك." (Lefort.C, 1999, p. 694)

هذا المشكل الذي يرى مرلو–بونتي أن نستطيع من خلاله وأفضل من غيره بتلمس ظاهرة حضورنا في العالم، فتجربة الإدراك هي التي تصلنا دوما بالعالم، العالم الذي هو معطى مباشر لتجربتنا الإدراكية، لكن ما هي العملية الإدراكية؟ وكيف يعتبر الإدراك الفينومينولوجي ذا بعد معرفي وجودي عند مرلو–بونتي؟

إن الإدراك حدث وسلطة الوعي يعمل على بناء وتشكل هذا الحدث الإدراكي، يرى انه أثناء عملية الإدراك، فإن ما تتلقاه من معطى لا يكون من خلال رابطة أو طريقة آلية مباشرة، ولكن المعطى يظهر من خلال علاقته بالوعي ذاته.

وإن ما يطفو إلى دائرة الشعور من العالم هو فقط مظاهر للأشياء المدركة (أي المُدرَك) فالإنسان المُدرِك والعالم المُدرَك كما يرى مرلو–بونتي متأثرا بهوسرل، علاقة تبادل، لا يمكن فهم أحدهما بمعزل عن الآخر لأن الكائن هو الكائن هنا فعلا.

تكمن أصالة هذا الاتصال وقيمته المعرفية في كونه وقبل كل شيء، الأرضية الفينومينولوجية الأساسية، التي ينطلق من خلالها مرلو–بونتي في وصفه لكيفية حدوث عملية الإدراك، أو بعبارة أكثر دقة، كيفية حدوث هذا الاتصال فهو بكيفية ما استعادة للإدراك من تحت الترسّبات المعرفية السابقة. إن الصفة الموحدِة لكل معرفة هي أن كل أشياء المعرفة تتخذ شكلاً مدركا أو ترتكز في معرفتها على شكل مدرك. وهذه الصفة الأولية والجامعة تسمح بتثبيت الشيء، فهي تستعيد الشيء المدرك من تحت الشيء المحمول بأن تنزع عنه كل أنواع الحكم. وكخطوة ثانية من أجل تحقيق غرض حيادية الشيء، يتطلب الأمر استبعاد أشياء العلم، والغوص في أركيولوجيا المعرفة ودراسة صور الوعي الحسي، التي تمّر وكأنها فضول نفسي. كما يجب أن يتحوّل حتما النظر الفينومينولوجي نحو الذات المدركة قصد دراسة العمليات الفاعلة في انفتاح العالم بعيدا عن بناء الأشياء في العلوم. وهذا يعني أن العودة إلى ظهور الوجود تحت الشيء وتحت الذات؛ تحت الشيء سنجد العالم، وتحت الذات نجد الجسد المتمظهر، في الغوص تحت الذات سنجد أن عملية الإدراك ليست نتيجة لتداعي الأفكار، بل على العكس من ذلك هي ما يجعل من فعل التداعي ممكننا، فالإدراك يسبق التداعي، أو قل هو نتيجة يتم من خلالها تبرير ما تم تحصيله في الإدراك. بالنسبة لمرلو–بونتي، ليس هناك شروط الإمكان تسبق الإدراك، لأن الإدراك يسبق

شروط إمكانه. وفي هـــذا المعنى الشكل الجيد لا يتحقق كونه جيدا بذاته في سماء ميتافيزيقية، ولكن هـــــو جـــيّد لأنه يتحقق في تجربتنا. إن ما يسمى بشروط الإدراك المزعومة لا تصبح سابقة للإدراك ذاتـــه إلا عندمـــا نفترض حـــول الظاهـــرة الإدراكـــية ـــــــ بـــدل وصفـــها كـــانفتـــاح أولـــي علـــى الموضوع–وسطـــا قـــــد اتضحت فيه كل التوضيحات وكل التقاطعات، التي يحصل عليها الإدراك التحليلي وتكون قد تأكدت كل معايير الإدراك الفعلي موضوع الحقيقة أو العالم.

يتم الانفتاح الأولي على الموضوع فيما يسميه مرلو–بونتي "الا نتباه" الذي يعد بمثابة الـــقدرة الأولية والغير مشروطة، التي يرتكز عليها كل محتوي الوعي. فـــــــالانتباه هو العملية الأولى، التي يتم من خلالها فتح مجال إدراكي أو ذهني يمكـــن استيعابـــــه، أو حركات العضو المستكشف. أن تكون منتبِها يقول مرلو–بـــونتي: ليس فقـــط تسليط إنـــارة أكثـــر عـــــلى معطـــــيات موجـــــودة مسبـــــقا، بـــــل إنجاز تمفصل جديد داخل هذه المعطيات باتخاذها أشكالاً. الانتباه لا يخلق شيئا جديدا، فهو يثير الإدراك فقط بـــــأن يعطـــــي للشيء إمكانية الظهور والإنعطاء بكّل وضوح. يمنح للشيء إمكانية الكشف عن معناه للذات المدركة فبفضل الانتباه يكون إدراكي الشيء هو في الوقت نفسه تقويمي له.

لا يجب أن يفهم هذا الكلام على أنه ترجيح للذات على حساب الشيء(العالم)، بأن تكون الذات هي مصدر الإدراك لأن لها أولوية بفضل فعل الانتباه. أي الانتباه هو فعل بفضله تتحول الذات المدركة إلى ذات مقّومة. فكل ماهناك هو أن الانتباه يتأكد بكـــونه إضافة ضرورية للإدراك، فهو ما يعطي الحياة للإدراك. وهو إن شئنا، تعويض وتجاوز لاستكانة الإدراك بنشاط الانتباه، نشاط يأتي لإغناء وإنارة المدرك دون إضافة شيء جديد وأما عن المعنى الذي تتقوّم فيه الأشياء، فإنه يحدث في الذات عن طريق الحكم الذي يعتبره مرلو–بونتي بمثابة إدراك العلاقة بين أجزاء الكّل، أي كإدراك لكلية المدرك كونه نتيجة للربط بين مكوناته.

وعندما ندرك موضوعا معينا يقول مرلو–بونتي: "مثل رؤيتي لمكعب ذي ستة أوجه فإنني لن أتمكن من إدراك أوجهه كلها إلا إذا تحركت مع أن حركتي لن تغير من وضع الشيء المدرك." (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 26)

يحدث فعل الإدراك داخل ما يسميه مرلو–بونتي "مجال الظهور الذي يفهم انطلاقا من العلاقات بين جسدي وعالم الأشياء. هذا المجال يفترض من جهة ذات مدركة ومن جهة أخرى شيئا مدركا. فالذات المدرِكة تدرك أشيائها بفضل الحواس، أي أنها تحسّ الشيء وتتواصل معه بحيث يكون حاضرا في مجالها الإدراكي. وانطلاقـــا من هذه العلاقة الأولية، يحدث الإدراك بكونه سابق عن كل تفكر نظري ويعطى كإدراك لموجود.

إن الإدراك هو نقطة انطلاق كل معرفة، ولكون مرلو–بونتي قد وعى جيدا قيمته في تحديد منبع المعرفة، فقد شعر بضرورة الحديث عن مجـــــال الظهـــور الـــذي يجـــــب علينا ارتياده واكتساب المعرفة عن طريق وصف نفسي مع ذات الظـــــواهر، هـــذا إذا ما أردناه كما هو الحال بالنسبة للفلسفة التأملية، عدم البقاء فـــي بعـــد ترنسندنتـــــالي نفترضه مسبقاً وللأبد، ونهمل المشكل الحقيقي للتقّوم.

تتسق وتجتمع التجارب الحسية في كل معرفة في معنى متكامل، من خلال فاعلية الحياة الداخلية للذات (لا يمكن فهمها وقياسها) انطلاقا من معطيات خارجية التي تستقبلها حواسنا من العالم، فيقول مرلو–بونتي:" فجسدي ليس شيئا، وليس أمامي لأنه

ليس بإمكاني أن أضعه أمام نظري وأرى جسدي، وبعبارات أخرى لكي أدرك جسدي كموضوع أو أراه، فإنه يجب عليّ أن أخرج منه كي أشاهده وهذا أمر محال." (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 107) فهذا الجسد هو الذي يجسد سلوك الإنسان عن طريق إدراك بالوعي العالم، وبالخبرة المعايشة للواقع الوجودي لهذا الجسد الإنساني.

وعليه فإن الارتباط الموجود بين الإدراك والجسد هو في الوقت نفسه ارتباط بين الإدراك والعالم لأن كل إدراك خارجي هو بالضرورة مرادف لإدراك جسدي، مثلمـــا أن كل إدراك لجسدي هو تعبير عن لغة الإدراك الخارجي. وإذا كـــانت فينومينولوجيـــا هـــوسرل تنفـــي وجود الإدراك الخـــارجي مقابل الإدراك الداخلي، فإن الفينومينولوجيا الوجودية عند مرلو–بونتي تبين لنا أن الإدراك الحسي هو رابط بين الداخـــل والخارج، أو بين الذات والمـــوضوع، أو بين الوعـــي والعالـــم، وكـــل هذا من خـــلال الجسد الـــذي يمكننـــا أن نشبهـــه بمثابـــة وعـــاء تتجمـــع فيه ومن خلالـــه كل خبراتنا الإدراكية، فبفضل حركته نتجه إلى موضوعات العالم وبفضل نظرته تكون هذه الموضوعات معـــــروفـــة لديـــــنا. وعليه أستطاع مرلو–بونتي تقديم حل لمشكلة المعرفة بحل مشكلة الإدراك وتجاوز التفسيرات الكلاسيكية مع المذهب التجريبي والمذهب العقلي، فأصبح الإدراك أكثر ارتباطا بالذات المدركة والموضوع المدرك معاً، دون أن تكون هناك أولوية لأحد الطرفين على الآخر وهكـــذا يكـــون الإدراك الحســـــي للـــذات الـــواعية المـــتجسدة هـــو مـــن يخبرنـــا عـــن الأشياء والآخرين والعالم.

يرتبط الإدراك الحسي في الفينومينولوجيا الوجودية عنـــد مرلوـــ بونتي بمشكلـــة الوعي كما يرتبط بمسألة الوجود، وهذا ما توضحه لنا مقولة الوجـــود فـــي العـــالم، التـــــي تبين أن الإدراك الحسي هو انخراط في العالم من خلال الجسد، فالـــخبـــرة الإدراكيـــة بما هي خبرة حسية هي مقابل تماما لمفهوم الخبرة المجردة لدى هـــوسرل، ومن بين مهامها أنهـــــا: "تعلمنـــا كيف نـــرى الشـــيء جيـــدا". لأن الإدراك هـــو رؤيتنـــا أو أطلعونـــا علـــى الوجود أو الكينونة سواء وجود الآخرين أو الأشياء، وبالتالي وجودنا، لأن هناك وحـــدة فـــــي الوجـــود، وهـــي وحـــدة ظـــلت مغيـــبة فـــي كـــل التفسيرات لأنه تـــم تفسيرهـــا تفسيـــــرا ميتافيزيقيا أحيانا وتفسيرا سببيا أحيانا أخرى. فتبين لنا الفينومينولوجيـــا الوجـــوديـــة عنـــد مرلو–بونتي أن الإدراك الحسي هو علاقة أصيلة مع الوجود، بل هو الـــوجـــود الأصيـــل في حد ذاته، لأنه توجه نحو الحقيقة، حقيقة الظواهر حيث يتميز الإدراك الحسي بأنـــه لا ينقطع عن العالم بل هو في اتصال دائم معه.

ما يجب التأكيد عليه في تكوين نظرية للمعرفة عند مرلو–بونتي وعلى خلاف كل ما تذهب إليه كل من النـــزعة التجـــريبية ونظيرتها التأملية اللاتي تغلّب إما الذات أو الموضـــوع، هو أنه يعتقـــــد في وجود علاقات تكاملية بين العالم والجسد، أي أن جسدي يسمح لي بأن

أعي العالم وبالمثل يمكّنني العالم من الشعور بجسدي، وضمن هذه العلاقات وهذا التشابك بين جسدي والعالم يمكن رصد مجال الظهور. فجسدي يسمح لي بالتعرف على الأشياء عن طريق الأحاسيس الأساسية التي تتحقق في الإدراك، الذي بدوره (الإدراك) يسمـــــح للذات بتقويم الأشياء.

إن ما يتبين لنا مما سبق ذكر، أن الإدراك تعبير عن وجـــودنـــا في العالم، أي أنه تعبير عن انفتاحنا على العالم، وهذا ما جعل مرلو–بونتي يعتـــبره بـــمثابـــة: "لغـــة تخبرنـــا عن العالم"، فالإدراك الحسي هو وسيلة الوعي للخروج الى العالـــم وظواهره

للظهور على ساحة الوعي. وعليه نصل الى أن الإدراك في الفينومينولوجيا الوجودية عند مرلو–بونتي هو عودة للأشياء ذاتها، وهو معرفة ووجود في الوقت ذاته، لكن ماهي الوسيلة التي تساهم في اتصال الإنسان بهذا العالم ومن ثمت حدوث الإدراك.

سنحاول ربط هذا الأسلوب بالحواس الإنسانية وخاصة حاسة "العين" التي تجسد عملية الرؤية والتي أولها مرلوبونتي أهمية فهو يهتم بدراسة وفهم إشكالية الإدراك عموما والرؤية خصوصا على أساس أنها جوهر أساسي لبلورة الفكرة المدركة والمنطلقة من الجسد، الجسد هو الفكرة الرئيسة التي تتمحور عليها فلسفة مرلو–بونتي، فهو يؤسس لحياتنا ولحياة العالم، إنطلاقا من حضور هذا الجسد أو حضور وظائف هذا الجسد في العالم، كيف يتجلى هذا الحضور؟

1–3 الرؤية: La vision

أن الوسيلة الأولى لاتصال الإنسان بالعالم الخارجي هي حاسة العين التي تقوم بعملية الرؤية وهي عملية باطنية كامنة، فالوعي الباطني يحمل قانون لموضوعه وتاريخه فهو يتجلى بذلك في شكل رؤية محضة يكون فيها متأثر، فكيف تلعب الرؤية دورا هاما عند مرلو–بونتي؟ ولماذا بالضبط الرؤية وليس الذوق، أو السمع ...؟ فهل نفسر عملية الرؤية فقط عن طريق العين؟

لقد كانت دائما الرؤية لغزا يجب الغوص إلى جوهرها بالدراسة الانطولوجية وبالوصف الفينومينولوجي، فالرؤية إذا عملية صعبة وفهمنا لها لا يتم للجسدية، إلا داخل خبرة الإدراك التي تستلزم بدورها التفكير والتأمل في فترات زمنية معينة ومتعاقبة من حياة الإنسان حيث أن الجسد الرائي (العين) يفضي نزوع لقصدية فينومينولوجية هوسرلية لا يمكن كبحها أو إلغائها عن الجسد المرئي (العالم، الطبيعة) فالعلاقة بين الرائي والمرئي علاقة نزوعية قصدية حتى يضف الرائي معنى على المرئي (الظاهرة)، إذا فالعالم والمكان هما بعدي من أبعاد الجسد الرائي أي الفاعل، حيث أن الجسد امتداد في المكان–فالرؤية أولا تحدد رؤية العالم فليس الجسد وسيلة للرؤيةـ واللمس بل مستودعها، لا يعد المكان شبكة علاقاته بين الموضوعات... فالعالم إذن هو حولي وليس أمامي وهو يشملني–فعالم الرؤية ينفتح حولي في ملموسية رؤية العالم–و يقول مرلو–بونتي :"إذا كان العالم ينفتح حول الجسد في الرؤية فإن التفتح هو القانون الأساسي للجسد الرائي مثلما تنبثق الأغصان من ساق النبات تحت الشمس." (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 357)

وبذلك تكون قصدية المرئي المدرك هي أن ينكشف للعالم في حضوره، فتصور الجسد دليل أن الإدراك ليس عملية تركيبة عقلية صرفة، بل هو نتاج تجربة مادية جسدية في المرحلة التي تسبق عملية التفكير، والتأمل وأيضا عملية الفهم للمعطيات الإدراكية المباشرة، فالمعرفة هي محاولة تجاوز مستوى الواقعي أي المعيش، بيد أن الحقيقة المعرفية لا تتناول العلاقات الطبيعية بقدر ما تتناول الدلالات التي يعيها الفهم الصافي من خلال عملية التأويل والتفسير، فالرؤية هي فعل الجسد إذ ينفتح المرئي الذي بدوره ليس شيء بل ما يظهر منه ويكشف عنه بصورة كاملة لأنه لا يكتفي بالإشارة إليه، أنه علامة بحيث أن تفتح الفاعل (العين–الرائي) كانتباه يسعى دائما إلى اكتمال هذه العلامة، إذ ينفتح المرئي على شكل علامات في حين ينفتح الرائي ككلام صامت، إذ يقول :" أن المعنى يتشكل بين لغة العلامة وصمت الكلمة، بحيث أن الجسد الإنساني هو الذي يستعد شحنته الرمزية أو الشعرية." (Merleau-Ponty.M, 1969, p. 28)

نخلص إلى أن الرؤية عند هـــوســـرل ومرلو–بونتي المـــصـــدر الأعلى لجميع الانبثاقات العقلية، أو الشعور الأصيل الذي وهبه الإله للإنسان فعلى المـــرء أن يتجه إلى الأشياء ذاتها، نفس المقاييس يـــنطـــلـــق منهـــا مـــرلـــو–بـــونتي إذ انـــه يستخـــــــــرج من الفلسفة الظواهرية مبادئ فلسفية وجودية جديدة تنطلق من الواقع المعيش واعترافا بالعالم المدرك. فالكائن الفينومينولوجي ينكشـــــف عن طريق الجسد، هذا الجسد الذي يعبر عن السلوك بالإشارة أو العلامة (الصامتـــة أو منطوقـــــة)، فالمـــعنـــى لا تنفصـــل عن اللسان والجسد لا ينفصل عن الآخرين في العالم.

3ـــ.2 من الإدراك الحسي إلى الرؤية عند مـــرلـــو–بـــونتي:

يكمن دور الرؤية في مشروع مرلو–بونتي بداية من العملية الادراكية ومما تقدمه أساسا في تكوين خبرة الجسد وحضوره في العالم في استقلالها من جهة وتشـــابكهـــا مـــع الحركة من جهة آخـــرى، هـــذا التشابـــك وبفضلـــه تتجـــول الأشيـــاء، وفـــي هـــذه العملـــية لا يهمل مرلوـــ بونتي إمكانية فهم الوجود بواسطة اتصال الوعي بعالمه، فالوعي ليس وجودا آخر منفصل عن وجوده الجسدي، بل هو وعـــي جسمانـــي ملتحـــم بالعالـــم، أنـــه بعبـــارة أدق كما يقول:" كوجيتو متجسد." (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 42) إن الجسد هو جهـــاز معـــرفـــــي مـــن خـــلالـــه يعـــــرف الإنســـان العالـــم بطريقة أولية سابقة عن التأمل، والوعي المتجسد هو ما يمكن أن يحـــل مشـــكلـــة اتصـــال الوعي بعالمه، ويمكنني من فهم الوجود الانساني بوصفه وجودا في العالم بالمعنى الذي فهمه هوسرل من فكرة العالم المعيش في فلسفته المتـــأخرة، فـــأجســـادنـــا ليست مستقلة عنا، بل هي وسائلنا التي نعبر بها عن أنفسنا بشكل طبيعي.

وتوضيحا لطبيعة الوظيفة التي تؤديها الرؤية كأهم وظائف الجسد يبين لنا مرلوـــبونتي قائلا:" أنه من رؤية منزل في ضوء زاويـــة معينـــة، ورؤيتـــه بشكـــل مختلف إذا نظرنـــا اليه مـــن الداخل، والأمر نفســـه إذا نظرنـــا الـــيه من أعلى الطائرة، بينما المنزل ذاته ليس أحد هذه الأشكـــال... إن المنـــزل ليس ذلك الشيء غير المنظور إليه من أي جهة من الجهات، بل هو المنزل المرئي من كل الجهات، فالموضوع المكتمل هو نتيجة لتقاطع مجموعة من النظرات." (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 81) ولأن النظر الى شيء معين يجعلني في تركيز مستمر عليه فإنني أغـــوص داخله بالاستكشاف وأجعله موضوعا لرؤيتي، ليصبح فـــي النهايـــة النظر إلـــى شيء هو الحلول فيه، وهكذا فكل شيء هو مرآة جميع الأشياء الأخرى، فالرؤية هي نظرة شاملة موسعة تحيط بالعالم بكل أجزائه.

وعـــلى ضـــوء مـــا تعـــرفنـــا عـــليـــه إلـــى حـــد الآن، يمكننـــا القـــول إن الجســـد ليس جهازا فوتوغرافيا يسجـــل انطباعـــات أو مجـــر د انعـــكـــاس، إن عـــيوننـــا الجـــسديـــة هـــي أكـــثـــر من مستقبلات للأشعة الضوئية، والألوان والخطوط، إنها مثل عيني الفنان إنها ترى العالم، وترى نـــواحـــي القصور التي تمنع العالم من أن يصبح لوحة، والرؤية ليست بالإضافة إلـــى ذلك فعلا للعقل أو عملية من عمليات الفكر يضع أمام العقل صورة تمثيلية للعالم، أي عالما مثاليا، بل هي رؤية بعيون الجسد لعالم واقعي مرئي يلتحم به الجسد في فعل الرؤية، حيث يقول: "فكل شيء أراه يكون في متناولي، وعلى الأقل في متناول بصري." (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 82)

3–2 التشابك بين المدرِك والمدرَك (الرائي والمرئي):

إن الرؤية حسب مرلو–بونتي هي:" نظرية شاملة، بمقلتي ومن أعماق لا مرئي المصغر أطل على العالم وأنظم هناك حيث هو. ثمة ضرب من جنون الرؤيـــة يجـــعلني فـــي نفـــس الوقت أتجه عن طريقها إلى العالم ذاته ومع ذلك وبدهيا فإن أجـــزاء العالم لا تتواجد معا من دوني: الطاولة في ذاتها لا علاقة لها بالسرير الذي هـــو علـــى بعد متر عنها، والعالم هو رؤية للعالم ولن يسعه أن يكون شيئا آخر" (مرلو– بونتي.م، 2008، ص 144). وإن وظيفة الرؤيـــة تـــدل علـــى اندمـــاج الجسد في العالم، فإنه من خلالها نفهـــم ان الجـــسد الحـــي يـــدرك ويعيش في عالمه، وليس مجرد جهاز استقبال لانطبـــاعـــات حسية، فهذا اللون من التفاعل المتبادل يظهر بوضوح تام ان الجسد ليس مجـــرد شيء أو آلة حيث أقوم أنا ببعث الحياة فيه، أو بالسيطرة عليه، ولكـــن الجـــسد كـــلـــه نفـــس بفضل تضافـــر الرؤية واللمس والحركة. إن العلاقة بين الذات والعالم هي علاقة تداخـــل بين الـــرائي والمرئي، حيث يمر كل منهما في الآخر لكن دون تمـــاه أو انصـــهـــار، يـــريـــد مرلو– بونتي أن يبين لنـــا أن مـــن طبيعة الجسد ان يكون مدرِكا ومدرَكا في الوقت ذاته، علـــى أســـاس أن الإدراك يتم بواسطـــة جسدي وفي جسدي، وأن جسدي هو الذي يدرك الأشياء كما تدركه هي كذلك. فـــمن خـــلال النظـــر أحيـــط بالأشياء المرئية وأقترن بها، كما أنني أدرك الأشياء وهي تدركني، وأحـــس بهـــا وهـــي تحس بي، مما يعـــني أن هنـــاك تضافـــرا والتقـــاء بين الرائـــي والمرئي بين المدرِك والمـــدرَك. ومعـــنى هـــذا أن هـــناك عـــلاقة بين الرائي والمرئي، بين اللامـــس والملمـــوس، بـــين الـــعين والأشيـــاء، بين اليـــد والأشيـــاء، ولابد أن نفهم أن اللمس والرؤية هـــو لمـــس ورؤيـــة الـــذات ذاتهـــا بمـــا أن الأشيـــاء امتـــداد لجـــسدي وان جسدي هو امتـــداد للعالـــم، فجـــسدي المـــرئي والمتحرك، هو في عـــداد الأشيـــاء، إنه واحد منها، وهو يتشابك في نسيج العالم، فالعالم مصنوع من نفس نسيج الجسد، وبالتالي يمكننا القول إن مرلو–بونتي ينفي أن يكون الإدراك مجرد حكم يلقيه الوعي الترنسندنتالي على أشياء العالم، وأقلّ من ذلك أن يكون مجرد تداعي أفكار، كما لايمكن حصره فـــي مجـــرد انتباه. إنه فعـــل إعجازي ينجز عـــلاقة بين جسدي والعالـــم، الإدراك هو عملية أولية تسمح بمعرفة المـــوجـــودات وبداهـــات العالم الطبيعي وهي الرؤية. ومنه الإدراك هو الإمســـاك بمعنى محايث لمحسوس معيش أو مدرك قبل كل حكم. وأخيرا الإدراك يسبق الكلام الذي يأتي تالياً لأن الإدراك الأول يحدث دون وساطة للغة أو الكلام ومن هنا وجب علينا التطرق إلى اللغة وعلاقتها الحميمية مع الإدراك فكيف يكون ذلك؟

4–اللغة وعلاقتها بالإدراك عند مـــرلـــو–بـــونتي:

إن اللغة تلعب دور في علاقة الجسد بالسلوك وعلاقته بالإدراك، فهي من أكثر المعطيات الإنسانية بعداً عن الآلية، فهي ليست بالشيء المتحقق كلية وليس بإمكانها أن تحقق شيئا ما بشكل كامل... بل يجب علينا أن نترك الكلمات وكل وسائل التعبير الخاصة بالكتاب التي تتفق بتلك الحالة من المعاني التي تستدعيها مختلف السياقات والدلالات.

تعتبر اللغة ظاهرة أخرى من الظواهر الفينومينولوجية الوجودية وإن لم تكن خارج النطاق الميتافيزيقي والإمتثاليـــة المتعالية حيث ان كل سلوك لا يرجع إلى الواقع وحده ولا إلى الوعي وحده، إذ أن الإدراك فيما يرى مرلو–بونتي هو حامل للمعنى منذ بدايتـــه لـــذا نـــجـــده يـــؤكـــد أن الإدراك هـــو تعبير. حيث أن التطور الكبير للسانيات الحديثة الـــتي بحـــثـــت فـــي علـــم اللســـان الـــذي تأسس على الذات المكتملة، باعتباره قوة يبني شق للـــغة على أساس النطق والكلام، فكيف تم الوصف

الفينومينولوجي للظاهرة النطق؟ وكيف يرى مرلو– بونتي اللغة كوظيفة للجسد على مستوى العملية التعبيرية والإدراكية؟

قد يكون من الضروري التذكير بادئ الأمر بالمكانة المركزية التي تكتسبها اللغة، ليس فقط في المسائل النظرية المتعلقة بالثقافة، ولكن لكونها حاملة لماهية الإنسان، كونه يعرف في بعض الفلسفات الكائن الناطق أو الكائن الرامز. فالوظيفة الأساسية التي تؤديها هذه الملكة المخصوصة بالإنسان هي كونها؛ ذاكرة تحمل تاريخه، ومدونة تعبر عن خلجات بواطنه ورابطا مباشرا بينه وبين عالمه ولكن ورغم كل هذه الفوائد الكثيرة، تبقى اللغة والكلام من أكبر الألغاز التي يتعين على العلم والفلسفة كشف أغوارها وحل مشكلاتها. وربما تكون الفينومينولوجيا أكثر الفلسفات اهتماما باللغة ليس فقط كونها وسيلة تحققها كعلم، ولكن بدرجة أولى كونها تحديا يقف في وجه الوصف الفينومينولوجي، الذي يعد جوهر الفينومينولوجيا ومنهج تقوّميها.

إن التطرق للموضوع اللغة كوظيفة للجسد، هو في الحقيقة ليس اختيارا اعتباطيا، بل حتمية منهجية يقّر بها مرلو–بونتي نفسه؛ حيث أنه وبعد تمييزه للجسد كوحدة خاصة عن مفهوم الشيء العلمي (الجسد الموضوع) في فينومينولوجيا الإدراك، فإن مهمته التالية قد حددها اكتشافه بأن كل الوظائف الخاصة بالجسد الحي، وحتى وظيفته الجنسية، تخفي قصدية ودلالة. وهو ما وجده محفزا لتجاوز الفرق التقليدي للذات والشيء من خلال وصف ظاهرة الكلام والفعل القصدي للدلالة. وهذا الأمر في حد ذاته مؤشر قوي لترسيخ الاعتقاد بأن موضوع اللغة ليس موضوعا ثانويا في فلسفة مرلو–بونتي إنما شديد الترابط مع تحليله الفينومينولوجي للجسد، وبالتالي له مكانة مهمة وخاصة داخل مجمل أفكاره الفلسفية لهذه الفترة وما بعدها.

لقد أولى مرلو–بونتي أهمية للقيمة اللسانية وذلك بتأثير من "دوسوسير "و "هوسرل"، بحيث أكد الأول أن اللسان هو نظام من العلامات التي تقوم على الأصوات انطلاقا من الأفكار ولا يمكن أبدا عزل الصوت والفكر بالنسبة للسان. إذ أن هذه اللغة بالضبط هي التي تجسد السلوك الرمزي وذلك من خلال ارتباطه بالإدراك كتعبير أولي، إضافة إلى الوعي بالجسد الخاص باعتباره أساس هذا السلوك الرمزي، يقول مرلو–بونتي:" فالطفل مثلا مع بدايته الأولى للاتصال مع الآخرين عن طريق الاستماع والإصغاء والتقليد، نجده يعرف بعض النواحي المتعلقة بالبدن والأشياء وفي نفس الوقت نجده يخطط لأفعال تحمل معنى سواء في الكلمات أو الحركات." (Merleau-Ponty.M., 1976, p. 184) وبرغم من تأثير "دوسوسير" و "هوسرل" على مرلو–بونتي في اعتمادهم اللغة أساسا لكل درس لساني، وبالتالي السبيل الوحيد لفهم العلاقة بين الذات والعالم. فإن مرلو–بونتي كان مقتنعا منذ فينومينولوجيا الإدراك حيث يرى: "أن وصف ظاهرة الكلام والفعل القصدي للدلالة، هو ما يتيح الإمكانية لتجاوز، وبصفة نهائية، المفارقة الكلاسيكية بين الذات والموضوع." (MERLEAU-PONTY.M, 1945, p. 221) وقد بدأ تحليله بوصف ظاهرة امتلاك اللغة، التي فُهمت منذ البداية على أنها الوجود الفعلي للصور الشفهية، أي آثار تتركها فينا الكلمات المنطوقة أوالمسموعة. وسواء كان مصدرها جسدي، أو نفسي لاشعوري، فإن هذا لا يختلف كثيرا باعتبار أن في كلتا الحالتين يبقى مفهوم اللغة نفسه، بحيث أنه يشير إلى عدم وجود ذات متكلمة.

تظهر أصالة مرلو–بونتي من خلال توجيه اهتمامه إلى فعل الكلام، أي إلـى الـذات المتكلمة وبالتالي إلى عملية التـواصـل التـي تتـم بـين الأفـراد. فعمـلية التـواصل تتم بين ذوات متكـلمـة، والمشكـل المطـروح ليس في فهـم كـل كـلمـة يمكـن أن تقـال داخـل ذلك الحوار، إنما في فهم الرسالة التي أراد أحـد الطـرفين أن يبلغهـا للآخر. فذلك الذي يسمع أو يقرأ يريد أن يفهم الذي يتكلم أو يكتب، يريد أن يفهم بالتحديد وبالجملة ما قيل له. وفي هـذه الحـالـة لـن تكـون للكـلمـات قيمة في ذاتها داخل الخطاب، ولكن في المعنى أو الرسالة التي تؤلفها مجموع الكلمات الملفوظة وعليه يتضح أن اللغة في كونها مدونة مستقلة عن الذات المتكلمة لا تشكل حدثا بالنسبة لمرلوـ بونتي، فهو يبني قضيته المتعلقة باللسان على نظرية المعنى وتحديدا على تكّون المعنى في الأشياء المدركة أو المعيشة.

لقـد حـرص مرلو–بونتي فـي فينومينـولـوجيـا الإدراك عـلى تـوضيـح القـرابـة بين الإشارة الجسدية والإشارة اللغوية، لأن الإشارة الجسدية في نظـره لـيسـت فـقـط وضـع الجسد في حالة حركة، فهو بمثابـة أول فعـل رمـزي لأنـه يجد أن فهم الآخر يتم عبر الجسد، كما أنه بالجسد يتـم إدراك الأشياء. فهم الإشارة بهذه الكيفية يجعل منها تمتزج مع بنية العالم التي ترسمها. وبدورها الإشارة اللغوية مثل باقي الإشارات ترسم معناهـا بنفسها. فالعلاقة بين الإشارة الجسدية ومعنـاهـا تـوضـح العـلاقـة بـين الإشـارة اللغـويـة ومعناها أيضا.

وخلاصة القول إن اللغة تبقى مـن اهـم وظـائـف الجـسـد على غرار باقي الوظائف الأخرى، هذه الوظائف التي يطـول الحـديث عنهـا بـل تحتـاج كل وظيفة بحثا خاصا بها حتى يمكننا فهم فكر الفيلسوف، لكن نقف عند هـذا الحـد مـن التحلـيل لنغوص في محطة أخرى من محطات الفينومينولوجيا عند مرلو–بونتي التي نجد فيها حضور مكثف للمفاهيم الفينومينولوجية والأنطـولـوجـيـة المختـلفـة.

5–الإدراك ودوره في المعرفة عند مـرلـو–بـونتي:

قد تحتمّ على موريس مرلو–بونتي، أن يشقّ طريق بين الفلسفات القائمة في زمانه. وكان عليه أن يجد وسيلة للابتعاد عن كلا التيارين التقليدي للفكر المثالي والواقعي. وكان بحاجة إلى منهجية لتحقيق أهدافه الوجـودية، أي أنه كان بحاجة إلـى جهاز مفاهيمي، ليس من أجل الالتفاف على الفلسفات القائمة، وإنما للدخول معها في حوار من أجل إفحامها أو إقحامها. وبالمختصر فإن ما كان يبحث عنه مرلو–بونتي هو طريق ثالث بين المثالية والواقعية، بين الفلسفة النقدية والعلم المـوضوعـي. فمـا هي معالـم هـذا الطريـق الثالث؟

لقد وجد مرلو–بونتي معالم طريقه في الفلسفة الفينومينولوجية الهوسرلية المتأخرة، "فلسفة عالم الحياة"؛ التي أرا د هوسرل من خلالها توضيح الأرضية الحقيقية التي تبنى عليها العلوم، والتي يجدها في العودة إلى بـداهـات التجربـة بمـا هـي عـودة إلـى عالـم الحياة. ولكن فهم هوسرل لهذه الخبرة في ظل تمسكه بضـرورة رد كـل علاقـة بـين الذات والعالم إلى معيشات الوعـي المتعـالـي عـبر القصديـة، لم يمكنه من استثمار هـذا الاكتشاف الأنطولوجي، الذي جعله مرلو–بونتي محلّ اهتمامه الفينومينولوجي.

يجد مرلو–بونتي هذه العودة التي تحدث عنها هوسرل في عملية الإدراك. فهو السبيل الذي ينفتح من خلاله الإنسان على العالم، ومن خلاله أيضا يظهر العالم للإنسان ومن أجل ذلك كان الإدراك هو نقطة الانطلاق لكل معرفة، فهو بمثابة جسر بين الانسان والعالم وأرضية لكل ما يمكن للإنسان أن يعرفه، وهو في النهاية ما قد يمكن مرلو–بونتي من صياغة نظرية شاملة يتحقق من خلالها حلم الفينومينولوجيا بأن تصير علما كليا وأرضية لكل العلوم.

لقد تحتمّ على مرلو–بونتي تخطي بعض التفسيرات والنظريات الناشئة عن بعض الفلسفات المعاصرة له. خاصة تلك المتفّرعة عن النزعتين التجريبية والعقلانية؛ فالنزعة التجريبية كانت تعتقد أن الإدراك عملية تلقي وتسجيل لمعطيات خارجية في حين تؤكد النزعة العقلانية مقابل ذلك، أولوية العقل ودوره في تأويل ما يتلقاه من معطيات وكان رده على النزعة التجريبية أننا في اثناء عملية الإدراك نتلقى معطيات، لكن ليس بطريقة آلية، لأن المعطى يظهر من خلال علاقته بالوعي، الذي لا يكون وعياً خالصاً وإنما يكون وعياً بالجسد، ذلك أنه وسيلة الإدراك، أو ما يضمن لنا أن ندرك. وأما ردّه على النزعة العقلانية، فإنه لم ينكر على العقل دوره في عملية الإدراك من خلال التأليف.

إن الحّل لهذه المشكلة لا يجده مرلو–بونتي في تبني إحدى النظريات التقليدية المفسّرة لعملية الإدراك، ويجد أن القرن العشرين مهيأ للجمع بين النزعتين المادية والروحية، بين المثالية والواقعية، أو بالأحرى تجاوز هذه المتضادات. واكتشف أيضا أن تحقّق هذا الجمع يمكن رصده فلسفيا في تطور العلوم، في مجال علم النفس خاصة بفضل التحليل النفسي مع سيغموند فرويد (1856ـ 1939)، الذي لفت انتباه مرلو–بونتي إلى إمكانية الجمع بين ما هو مادي (جسماني) وما هو نفسي (روحي) من خلال مفهوم اللاشعور.

فقد توجّه إلى بحث إمكانية تحليل الظواهر اللاشعورية كمنهج للدخول إلى البعد الطبيعي أو الأساسي للوجود الإنساني، الذي يطلق عليه فرويد مفهوم الدفع ويسميه مرلو–بونتي الجسد. هذا البعد (الجسدي، المادي) الذي يعبر عن كل ما هو موجود بصفة عامة، والذي اعتمد عليه مرلو–بونتي ـــ خاصة في كتاباته الأخيرة ـــ في إعادة بناء تصوره حول مفهوم الإنسان في إطار أوسع بأن يأخذ معناه من منظوره الحياتي، أي من الطبيعة.

فمرلو–بونتي يعطي الأولوية لعمليات الإدراك في كل معرفة، فأنطولوجيا المرئي تستوجب على الكائن الفينومينولوجي معرفته عن طريق الجسد، حيث يقول: "فالأشياء تثير من يراها في شكلها الجسدي المتميز الحسي."(Merleau-Ponty, 1964, p. 214)

ومن علاقة السلوك بالإدراك تجسد لنا نظرية الكوجيتو الجسد الفينومينولوجي باعتباره الركيزة الأساسية في فلسفة موريس مرلوـــ بونتي، ولكنها ليست نظرة للجسد كجسد بمعزل عن الإدراك، السلوك، اللغة، والمعرفة.... الخ فقد حاول تجسد نظريته عن الجسد بالبعد الوجودي والجمالي والفني لديه.

لم يشذّ مرلو–بونتي عن التقليد الفلسفي المتجذّر في الأنساق الفلسفية الكبرى منذ (أفلاطون وأرسطو وديكارت وهيجل وماركس، وهوسرل وهيدغر...إلخ)، الذي يحتم على الفيلسوف إرساء قواعد فلسفته انطلاقا من فكرة مركزية، تكون بمثابة المرجعية الأصلية لكل تفسير لاحق. ولأدّل على ذلك وأقرب من فكرة الوعي المتعالي عند هوسرل، التي جعل منها أساسا لإمكان العلم الفينومينولوجي، والتي تنحدر بدورها من فكرة الكوجيتو الديكارتي، وكلاهما يندرجان تحت عنوان نظرية المعرفة؛ ذلك المبحث

الفلسفي الذي شغل بال أكبر الفلاسفة منذ فجر التاريخ. فمنذ أفلاطون والصراع قائم بين حدي المعادلة المعرفية التي يشدّ حبلها سؤال كيف نعرف؟ هل مصدر المعرفة الذات أو الوعي أو الفكر وكلها مرادفات أم الوجود المادي المحسوس؟ هل تصدر المعرفة من داخل الإنسان، أم أنها مجرد انعكاس للعالم الخارجي؟ وقد وجدت هذه الإشكالية على مر التاريخ مناصرين لكلتا الفرضيتين؛ فانتصر أفلاطون لعالم المثل، عالم الأفكار على حساب العالم الواقعي حين عّد ما هو حقيقي بالضرورة ما كان فكرا، وشك في كل ما عداه. وعلى منواله فعل ديكارت حين شكّ في كلّ شيء سوى في حقيقة كونه كائن مفكر، وهذا الافتراض الأول. أما الافتراض الثاني الذي يقوم على المادة، فقد انتصرت له تلك النزعة التجريبية، التي انطلقت مع "فرانسيس بيكون" بربط المعرفة بما تنتجه التجربة العلمية الخاضعة لخطوات المنهج التجريبي، وبلغت ذروتها مع المشككين في قدرة العقل، أمثال "جون لوك"، و"جورج بركلي"، و"دافيد هيوم"، الذين بلغ بهم الشك مع هذا الأخير إلى نفي إمكان وجود شيء يسمى عقلا أو فكراً بمقابل المادة والحواس. ورغم محاولة كانط وتوسطه بين حدود العقل وحدود المادة، بحيث جعل الأول خاضعا لمقولتي الزمان والمكان، وبالتالي جعل المادة شرطاً أساسياً لحدوث التجربة وتمكين العقل بوصفه عضواً نشطا من تحويل مادة الإحساس الخام إلى إنتاج فكري تام، عبر قوله بوجود قوانين فطرية قبلية للعقل تنظم ضروب التجربة الكثيرة والمشوشة إلى وحدة من الفكر المنظم، وهذا ما ساهم في تخفيف من شدّة الصراع، وربما بقي الصراع إلى يومينا هذا في جدال عقيم. وعلى الرغم من رأي كانط، لم يستطع فك لغز مصدر المعرفة نهائيا بل أصبحت مشكلاتها أكثر دقة وتفصيلا. ومرلو-بونتي هو أحد الفلاسفة الذين بحثوا، أو بالأحرى نظّروا لهذه الإشكالية الصعبة.

6-الإدراك وعلاقته بالوعي والوجود عند مـــرلـــو-بـــونتي:

يرتبط الإدراك الحسي في الفينومينولوجيا الوجودية عنـــد مرلوـــ بونتي بمشكلـــة الوعي كما يرتبط بمسألة الوجود، وهذا ما توضحه لنا مقولة الوجـــود فـــي العـــالم، التـــي تبين أن الإدراك الحسي هو انخراط في العالم من خلال الجسد، فالـــخبـــرة الإدراكيـــة بما هي خبرة حسية هي مقابل تماما لمفهوم الخبرة المجردة لدى هـــوسرل، ومن بين مهامها أنهـــا كما يقول مرلوـــ بونتي: "تعلمنـــا كيف نـــرى الشـــيء جيـــدا." (Merleau-Ponty, 1964, p. 215) لأن الإدراك هـــو رؤيتنـــا أو اطّلعونا علـــى الوجود أو الكينونة سواء وجود الآخرين أو الأشياء، وبالتالي وجودنا، لأن هناك وحـــدة فـــي الوجـــود، وهـــي وحـــدة ظـــلت مغيـــبة فـــي كـــل التفسيرات لأنه تـــم تفسيرهـــا تفسيـــرا ميتافيزيقيا أحيانا وتفسيرا سببيا أحيانا أخرى. فتبين لنا الفينومينولوجيـــا الوجـــوديـــة عنـــد مرلوـــ بونتي أن الإدراك الحسي هو علاقة أصيلة مع الوجود، بل هو الـــوجـــود الأصيـــل في حد ذاته، لأنه توجه نحو الحقيقة، حقيقة الظواهر حيث يتميز الإدراك الحسي بأنـــه لا ينقطع عن العالم بل هو في اتصال دائم معه.

7. خاتمة:

إن ما نستنتجه مما سبق الذكر، أن الإدراك تعبير عن وجـــودنـــا في العالم، أي أنه تعبير عن انفتاحنا على العالم، وهذا ما جعل مرلو-بونتي يعتـــبره بـــمثابـــة: "لغـــة تخبرنـــا عن العالم." (مرلو-بونتي.م، 2008، صفحة 14)، فالإدراك الحسي هو وسيلة الوعي للخروج الى العالـــم وظواهره للظهور على ساحة الوعي. وعليه نصل إلى أن الإدراك في الفينومينولوجيا الوجودية عند

مرلوـ بونتي هو عودة للأشياء ذاتها، وهو معرفة ووجود في الوقت ذاته، ومن النتائج التي نخلص اليها في تتمة هذا العمل **أولاً:** ان طموح الفلسفة عند مرلوـ بونتي تسعى إلى ان تكون علما مضبوطا، إذ ان تجربته الفينومينولـوجيـة مـا هـي إلا تجـربـة فينـومينولـوجيـا الإدراك الحـسي، فحاول تأسيسها على حيثيات إبستيمولوجيا مختلفا عن سارتر الذي اخذ بعدا أدبيا. **ثانياً:** يبـدو أن اللحظـة الديكارتيـة أو لحظة الحداثة أدت إلى ولادة كان لابد منها للـفـينـومـينـولـوجـيـة، فـكـان هـوسـرل الـعـتـبـة الأولـى لهـذا الإبـداع الفـكري الفلسفي الفينومينولوجي، الذي أسس كوجيتاتوم جديد يقف على حل كل الإشكاليات الفلسفية، هذه الفـينـومينولـوجيـة هـي التـي أخـذت أبعـاد وجـوديـة، مـع تـلامـيذه المباشريـن أو الغير المـباشـريـن كـالـوجـوديين الفرنسيين خاصة مرلو–بونتي إذ بقيت الظواهرية بأنها علم بدرس المـاهيـات مـن هـوسرل حتى مرلو–بونتي، رغم ذلك نجد ان هذه الظواهرية قد نجحت في نقاط وأخفقت في نقاط أخرى. **ثالثاً:** تجـاوزت النظرية الفينومينولوجية الذات المفكرة عند ديكارت والأنا المتعالية عند هوسرل لتضع كوجيتو متجسد هو الجسد الواعي، أو الوعي بالجسد الخاص، فقلبت الـوجود لذاتـه والوجـود فـي ذاتـه عنـد سـارتـر إلـى الوجود في العالم المدرك مع وجود الأجساد الأخرى، ففلسفته فلسفة الاعتراف بالآخر والتفاؤل بالمستقبل. **رابعاً:** إن فينـومينولوجيا مرلو–بونتي معتمدة على الادراك الحسي والجسد في فهمها للعـالـم، كـمـا رأى مرلو–بونتي في هذا الشأن إعادة تأسيس الفينومينولوجيا على أسس إبستمولوجيـة وعلـى أسس أنطولـوجيـة وجودية لأنها تؤكّد على أولوية انا موجود إذا كان مقصدنا هو الالتقاء بالعالم فما علينا غير تفسير المدرك وتجربة الإدراك. **خامساً:** إن عملية فهم تـعـيين مـا نـدركـه هو في الحقيقة تابع للبنية الموضوعية لموضوع خاصّ ينتمي إلى عالـم مـوضوعيّ. وتجربة الإدراك المباشرة هذه تبيّن لنا أن المـدرك هـو مـا يظهـر لنا كوحدة للمعنى قبل أيّ تحليل إن مشكل الإدراك نحو الوعي، يحيلنا الـى أنّ العـالـم الخـارجـيّ يتطابق مع تجربتنا الإدراكية إذا معنى الوجود المدرك يردّ إلى فعل الإدراك نفسه. **سادساً:** تعتبر الرؤية امتداد لنظـريـة الإدراك الحسي تجسيدا للمرئي وامتداد لجذور اللامرئي باعتبار ان المرئي ما هـو إلا انفتاح جسدي على العالم المعيش، يفصلها عن نسيج التعبير الرمزي، لتبوح بوجود العالم الصـامـت حيث ان هذا الصمت يحتل مكانة مهمة فـي فينـومينـولـوجيـا اللغـة عـند مرلو–بونتي، فهو الذي يشكل الخطوط، الألوان، الأشكـال... والرؤيـة هـي فعـل العيـن المباشر للعالم وفعل البصيرة الإدراكية التي تنقل الحركات إلى معاني والمعاني إلـى إشـارات وإيماءات جسدية فيكون الجسد حاضر في العالم. **سابعا:** إنه بالرغـم مـن وجـود بـعض الاخـتـلافـات فـي الأسس والـمنطلقات المؤسسة للفينومينولوجيـا فـإن مرلو–بونتي يبقـى مـن أكـثـر الفلاسفـة الفرنسيين أمانة وإخلاصا في نقل وشرح وتطبيق فلسفة " هوسرل "، دون أن ينتقده بعنف أو يثور عليه بضراوة مثلمـا فـعل غيـره مـن الفـينومينولـوجيين الفـرنسيين والألمـان، بـل كـان يعتبر نفسه المنـفـذ الحـقيـقـي لـوصيـة أستـاذه الفـلسفيـة فـي اسـتـكمـال ومـتـابـعـة الـدراسـات الفينومينولوجية.

ومما سبق يمكن التأكيد على أن فلسفة مرلو–بونتي فلسفة وجودية أسسها فينومينولوجية ولهذا فقد اعتبر أول من قال الفينومينولوجية الفرنسية تميزا عن الفينومينولوجية الألمانية الهوسرلية، فهو تيار فلسفي ارتبط تأسيسه باسم مرلوـ بونتي، وخلاصة

القول وخاتمته ان فلسفة مرلوـــ بونتي متكاملة بين كل أبعادها الانطولوجيا وتمثلاتها الفينومينولوجيا، كنظرية في الجسد، اللغة، الرؤية، الإدراك الحسي... التي لم يبتعد فيها كثيرا عن مجال الفينومينولوجيا القائمة على الإدراك.

8. قائمة المراجع:

لالاند.أ. (2001). *موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني*. (خليل أحمد خليل، المترجمون) منشورات عويدات، بيروت، باريس ط2.

مرلو- بونتي.م. (2008). ، *المرئي واللامرئي*. (عبد العزيز العيادي،، المترجمون) المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1.

هوسرل.إ. (س2007). *فكرة الفينومينولوجيا*. (فتحي إنقزو، المترجمون) المنظمة العربية للترجمة، بيروت – لبنان، ط1.

Descartes.R. (1647). Metaphysical meditations, Second meditation. (V. J. Petit, Trans.) Ville de Saguenay: Paris. Retriever 2016

HUSSERL.E. (1996). Méditations cartésiennes (introduction à la phénoménologie. ,(Gabrielle PEIFFER, Emmanuel LIVINAS ; Trad.) librairie philosophique J. Vrin

Lefort.C. (1999). « Maurice Merleau-Ponty » in Histoire de la philosophie (Vol. III). Paris, ,Gallimard, Vol.2

Merleau-Ponty, M. (1964). Le visible et l'invisible. éd : Gallimard

MERLEAU-PONTY.M. (1945). Phénoménologie de la Perception. Paris, Gallimard

Merleau-Ponty.M. (1969). La prose du monde "texte établi et présenté par Claude Lefort". .Paris, France : Editions Gallimard

Merleau-Ponty.M. (1976). Structure du comportement. 6°édition, PUF, France